

الحلقة (٨)

نبدأ بما بقي من تفسير الآية (١٠٢) ثم نأخذ بعد ذلك ما يتسر من الآية (١٠٣، ١٠٤) من سورة

البقرة

قوله تبارك وتعالى { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } قوله جل وعلا "وما هم" إشارة إلى السحرة وقيل إلى اليهود وقيل إلى الشياطين، على كل حال فهؤلاء من السحرة يتعاون معهم الشياطين أو اليهود كل هؤلاء ليس بضارين أو يوقعون الضرر في أحد إلا بإذن الله تبارك وتعالى وبقضائه ويقدره قوله {بَضَارِّينَ بِهِ} الضمير هنا يرجع إلى السحر لأن الحديث عنه، قوله تبارك وتعالى إلى {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أي بإرادته وقضائه وقدره سبحانه وتعالى كل الأمور مقدرة {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ومن ذلك أن فلان يضر فلانا أو أن فلانا يؤدي فلانا، هذا كل شيء بقضاء الله وقدره.

قوله تبارك وتعالى {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} يعني هؤلاء السحرة ومن سار في ركبهم يتعلمون ما يضرهم في الآخرة وإن أخذوا فيها نفعاً قليلاً في الدنيا، وقيل أيضاً أن الضرر يكون في الدنيا لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر في الدنيا إذا عثر عليه لأنه سيقام عليه الحد بعد ذلك فيلحقه شؤم السحر، فهؤلاء يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ليس هناك نفع وراء السحر، قد يستدرون أموال يرهبون الناس يخوفون الناس لكن الحقيقة لا ينتفعون، فالضرر سيكون مآلهم في الآخرة، وقد يأتيهم ضرر في الدنيا، فعندما يقبض عليهم يقبض على هؤلاء السحرة يعني يقام فيهم الحد ويظهر خزيرهم ويفضح أمرهم ويعلن حالهم أمام الناس حتى يحذروهم، فالسحر شر وضرر على أصحابه وعلى من وقع عليه حتى يأذن الله له بالشفاء.

قوله تبارك وتعالى {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه مآلهم في الآخرة من خلاق، يعني أن من استبدل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به بالسحر وأخذ السحر هذا ليس له نصيب وليس له حظ ولا فلاح في الدنيا ولا في الآخرة، واللام في "لقد" لام تأكيد وقوله {لَمَنِ اشْتَرَاهُ} اللام هنا أيضاً لام تأكيد، {مِنْ خَلْقٍ} أي: من نصيب قاله ابن عباس ومجاهد، وكذلك عند أهل اللغة، ويقولون أن النصيب في الغالب يستعمل في الخير {مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} يقول اللغويون أن الغالب والأكثر في كلمة نصيب أنها تستعمل في الخير قد تستعمل في الشر لكنه قليل، {مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ} أي: ماله من نصيب، قيل: أن معناها أنه ليس له دين وقيل ليس له حجه عند الله تبارك وتعالى، ثم قال تبارك وتعالى {مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} "شروا" ليس بمعنى اشترؤا لا

المقصود هنا شري بمعنى: باع، يعني لبئس ما باعوا به أنفسهم، ولبئس البديل ما ابتدلوا به السحر عن الإيمان ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا السحر، لبئس الصنيع وبئس العمل، قوله تبارك وتعالى {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي لو كان عندهم علم بما وعظوا به لاستفادوا، ولكنهم أعرضوا ونكصوا على أعقابهم العياذ بالله عز وجل من ذلك.

الآية رقم (١٠٣) من سورة البقرة وهي مرتبطة بالآية السابقة، قوله تبارك وتعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ارتباطها قوي في الآية السابقة ومعناها واضح، لو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحرمات، والمحرمات كثيرة لكن نحن نتكلم الآن عن السحر ونحن مرتبطون بالآيات السابقة، فالمقصود منها هنا السحر،

{لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ} لو أنهم آمنوا وصدقوا وتركوا السحر وتركوا المحرمات لحصل لهم خير من الله تبارك وتعالى كما قال جل وعلا {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} (القصص ٨٠) هذا يستفاد منه أن هؤلاء تركوا الخير والفضل وذهبوا إلى الكفر والضلال وأذية الناس عياذاً بالله جل وعلا من ذلك.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: على كلام نفيس له أحببت أن أقرأه على مسامعكم قال: وقد استدلل بقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} من ذهب إلى تكفير الساحر، هذا أيضاً دليل يضاف إلى ما ذكرناه آنفاً كما هو رواية عن الإمام أحمد وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعي وأحمد عن بجالة بن عبدة قال كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال فقتلنا ثلاث سواحر، وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت، قال الإمام أحمد صح عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قتل الساحر، وروى الترمذي عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حد الساحر ضربه بالسيف) ولذلك حمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم.

تفسير الآية (١٠٤) من سورة البقرة وهي قوله تبارك وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

◀ **سبب نزول هذه الآية:** فقد روي ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان المسلمون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراجعة، أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سباً أي **اسمع لا سمعت**، أخذوا الكلمة عن اليهود وما كانوا يعرفون المعنى السيئ، معنى راعنا قيل من الرعونة والضعف والخور، وقيل أنها كلمة سب عن طريق اليهود، إذا قالوا راعنا يعني اسمع لا سمعت، فاغتنموها اليهود وقالوا: كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً، هم يتضحكون فيما بينهم يقولون هذا كان بينا ما أحد يدري، الآن الناس نقلوها عنا وصاروا يقلونها، ونحن نقولها فلنسبه جهراً،

فكانوا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه رضي الله عنه وأرضاه، كان قويا في الإسلام وفي احترام النبي صلى الله عليه وسلم وفي تقديره، قالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلا نفتدي باليهود في هذا اللفظ، نزلت الآية تنهى المسلمين الذين قالوها عن طيب نية، يعني سمعوها تتداول فنقلوها، ولم يقصدوا معناها السيئ الذي كانت تقصده اليهود واليهود كانت تضحك يفرحون لأنه يسب عليه الصلاة والسلام جهراً فنزلت الآية والله الحمد، فاليهود كانوا يأتون بهذه الكلمة لما فيها من التورية من التنقص والازدراء، فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا قالوا راعنا، كما قال تبارك وتعالى {مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} واليهود ليس هذه بأول زلاتهم وتنقصهم واستهزائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في الألفاظ، في الحركات، في الأفعال، ومن ذلك ما جاء في الأحاديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون السام عليكم، ما يقولون السلام، والسام هو الموت، ولذلك أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم، ولما غضبت عائشة رضي الله عنها قال عليه الصلاة والسلام (ألا تسمعين ما قلت لهم، إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا) يعني الله جل وعلا يستجيب دعاءنا عليهم ولا يستجيب دعاءهم علينا هذا من خبث اليهود ومن أفعالهم السيئة القبيحة.

❖ مفردات الآية:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا} كلمة راعنا من صيغ المفاعلة، لأنه بين اثنين، فتكون من رعاك الله أي احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك، يعني من هذا الكلام يعني راعنا تكون من اثنين يعني اراعنا ولنراعك، كما يقال احفظنا ولنحفظك وارقبنا ولنرقبك، ويجوز أن يكون من أراعنا سمعك، أي فرغ سمعك لنا، ولا شك أن المخاطبة في هذا جفاء، تقول لفلان: فرغ سمعك، اصغ بسمعك لي، هذا فيه نوع من الجفاء ونوع من التنقص والازدراء، المنافقون كانوا يقولون هذه الكلمة أيضا ويدعون بها الرعونة والخسة والضعف والخور، فهل هذا يكون في حق الرسول صلى الله عليه وسلم؟! الذي له عظيم القدر وكبير الجلالة عند الله تبارك وتعالى؟! هذا ليس بحق وليس بصواب، والصحابة وإن قالوها ما قصدوا المعاني القبيحة السيئة، ولكن الذي قصدها اليهود والمنافقين.

← **وهنا مسألة:** استدل بهذه الآية على أنه يجب تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها تعريض وتنقص من قدر الآخرين، المسلم ولله الحمد لا يقول إلا الكلام الطيب الحسن، لا يأتي بألفاظ قد تحمل محامل سيئة أو قبيحة، بل يقول الكلام الطيب ويبتعد عما فيه تعريض أو تنقص من الآخرين، أيضاً استدل بهذا جمع من العلماء على سد الذرائع وحمايتها وهو مذهب للإمام مالك وأصحابه والإمام أحمد والذرائع عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه لكن يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع، هو ليس

ممنوعا لكنه يخاف أنه لو فعل أن يوقع في أمر محرم أو أنه يجر إلى أشياء أخرى.

❖ والأدلة على هذه القاعدة قاعدة سد الذرائع كثيرة، منها:

■ **الدليل الأول:** منها في القرآن هذه الآية "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا}" ووجه الاستشهاد بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسب، يعني هذا مجال يتحول إلى سب الفعل قيل في زمن ما وقيل يحتمل السب.

■ **الدليل الثاني:** "{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}" فمنع من سب أهلتهم مخافة مقابلة بمثل ذلك منع جل وعلا من سب الآلهة.

■ **الدليل الثالث:** أيضا قوله تبارك وتعالى "{وَأَسْأَلُهُمُ عَنِ الْفَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}" فحرم الله عليهم الصيد في يوم السبت، فكانت الحيتان تأتي يوم السبت شرعا أي ظاهرة، فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وهذا أيضا تحايل وتلاعب، ولذلك استحقوا اللعنة والغضب والعقوبة من الله تبارك وتعالى.

■ **الدليل الرابع:** في السنة حديث عائشة أن أم حبيب وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأيها في الحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح فمات بنو على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله) رواه البخاري ومسلم، فهذا مما يدل على أن هذا ذريعة إلى عبادتهم وإلى تعظيمهم، النبي صلى الله عليه وسلم أولئك شرار الخلق عند الله.

■ **الدليل الخامس:** أيضا من الأدلة على سد الذرائع قوله عليه الصلاة والسلام في حديث النعمان بن بشير وقد رواه مسلم (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه) الإنسان الذي يرعى حول حمى فلان قد تدخل الغنم أو يدخل البقر في هذا الحمى، ولو ابتعد ارتاح، وهكذا الإنسان الذي يقع في الشبهات ويتساهل فيها تقوده يوما ما إلى الحرام فتزل قدمه في ذلك.

■ **الدليل السادس:** أيضا من الأدلة قوله عليه الصلاة والسلام (إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) فالرجل لا يمكن يشتم والديه، ولكن لو شتمت أب فلان أو أم فلان سيعود ويشتم أبك ويشتم أمك، معناه كأنك صرت سببا في شتم والديك.

قوله تبارك وتعالى "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا}" أمروا أن يخاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجلال والتقدير، والمعنى أقبل علينا وانظر إلينا، وقال مجاهد رحمه الله أي فهمنا وبين لنا، وقيل المعنى: انتظرنا وتأني بنا، المهم أن يكون بأدب واحترام مع النبي صلى الله عليه

وسلم، بدل كلمت راعنا وما فيها من التنقص والاستخفاف والمعنى السيئ، جاءت هذه الكلمة التي تحمل المعاني أقبل علينا انظر إلينا كلام جميل فهمنا بين لنا، هكذا قراء السبعة **{قُولُوا أَنْظَرْنَا}**.
قرأ الأعمش أنظرنا وهذه قراءة شاذة، بمعنى: أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عليك ونتيقن منك، ومن باب الفائدة: القراءات الشواذ لها مراجع هناك مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه وأيضاً المحتسب لابن جني أيضاً يعتبر مرجع من مراجع القراءات الشواذ أيضاً إعراب القراءات الشواذ العكبري يعتبر مرجعاً من المراجع.

{وَأَسْمَعُوا} لما نهى وأمر سبحانه وتعالى حض على السمع الذي في ضمنه الطاعة، وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذاباً أليماً، إذن هذا دليل على وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلم وتقديره والنهي عن الوقوع في سبه أو في ازدرائه والله جل وعلى يقول **{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}** قيل في هذه الآية أن الناس كانوا يقولون يا محمد يا محمد، وهذا لا يليق بمقام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل أن بعض الأعراب كانوا يقولون هذا فأمرؤا أن يقول أحدهم يا رسول الله يا نبي الله، هذه الكلمات الجميلة التي تدل على تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى إجلاله وعلى تقديره.

وهنا وقفه يسيره في باب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم واحترامه وتقديره، العلماء يقولون أو المفسرون يقولون إن الله جل وعلا أعلى شأن نبيه صلى الله عليه وسلم، وعظمه، وقدره، والأدلة على هذا كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك أن الله عز وجل نادى الأنبياء بأسمائهم، يا آدم، يا نوح، يا يحيى، أما نبينا صلى الله عليه وسلم لم ينادى باسمه، إنما نودي بوصفه الشريف، وكون الإنسان ينادى بوصفه الشريف دلالة على جلالته وقدره وعظمته منزلته، ونودي عليه الصلاة والسلام **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}** في موضعين من القرآن في سورة المائدة، ونودي **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}** في ثلاثة عشر موضعاً، هذه خمس عشر، ونودي بوصفين مشتقين من حالته التي كان عليها وهما المزمّل والمدثر **{يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ}** **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**، وأيضاً لما حكى الله جل وعلا كلام الكفار وخطابهم للنبي صلى الله عليه وسلم ذكر ندائه بقوله جل وعلا

{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} ما جاء يا محمد، إذن في باب النداء لم ينادى عليه الصلاة والسلام باسمه العلم، لكن في باب الإخبار صرح باسمه عليه الصلاة والسلام محمد، لكن حتى في باب الإخبار جاء معه الرسالة أو جاءت معه الرسالة مقترنةً به عليه الصلاة والسلام.
النداء لم ينادى باسمه العلم، وفي باب الإخبار قرن اسمه بالرسالة كقوله تبارك وتعالى **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** وفي قوله تبارك وتعالى **{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ}** إذن نلاحظ في باب الإخبار يأتي اسمه عليه الصلاة والسلام مع ذكر الرسالة، قال أهل العلم إذا كانت هذه منزلته وعلو قدره عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا،

أفلا تكون هذه المنزلة وهذا العلو وهذا القدر في قلوب أتباعه والمؤمنين به ؟! يجب أن نعظم النبي صلى الله عليه وسلم وأن نقدره حق قدره ولا نغلو فيه، وسط بين أمرين، لا غلو ولا جفا، لا إفراط ولا تفريط، فهو عبد الله ورسوله، وهو أفضل الرسل وأشرفهم وأكرمهم وأعظمهم منزله، ولكن لا نصرف له حقاً من حقوق الله تبارك وتعالى، فندعي أنه يعلم الغيب أو يقضي الحاجات أو يجيب الدعاء أو يغيث الملهوفين، هذا شرك مع الله تبارك وتعالى، وهو الذي دعانا إلى التوحيد وحذرنا من الشرك، قال تبارك وتعالى {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} وفي قوله تبارك وتعالى {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.